الضمير وأثره
في
تقويم الأخلاق وتهذيب السلوك

دكتـــــورة

هنى إبراهيم إسماعيل أبو شادى

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والفلسفة

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

بالإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

نحمدك اللهم لك الخلق والأمر ونستخيرك بيدك الخير ونستلهمك الرشد والتوفيق . ونرغب إليك أن نصلى ونسلم على سيدنا ومولانا محمد صاحب الشريعة السمحة . والقول الفصل والخلق العظيم . اللهم أدبنا بأدبه المحفوف بالعصمة . وثقفنا بكلماته الجوامع فى حديثه الشريف : " من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق مما فى يده " (١) .

وبعـــــد ،،،

فإنه قد يغفل الضمير أو تغفو المشاعر الإنسانية وتهجع فى النفس قوة المراقبة فيدخل عليها الداء من حيث لا تقدر . ويتسرب إليها الوهن من حيث لا تشعر . ولكن العاقل الذى يحاسب نفسه لا يلبث أن ينتزعها مما يحل بها من آفة ويتسلط عليها من داء . ولعل هذا أبرز فارق بين البر والفاجر فإن البر سريع الرجوع إلى الله كثير الإقلاع عن ذنبه شديد الندم على ما يصدر عنه من مخالفة ربه . أما الفاجر فهو دائما سادر فى لهوه ممعن فى غيه لا يوقفه إلا القوارع المجلجلة والمحن العاصفة .

لكل هذه المعانى استخرجت الله فى أن يكون موضوع بحثى " الضمير وأثره فى تقويم الأخلاق وتهذيب السلوك " آملة أن يكون التوفيق حليفى والله من وراء القصد .

---

(١) المستدرك : الحاكم النيسابورى ٤/٢٧٠ كتاب الأدب .

وسوف أتناول هذا الموضوع فى النقاط التالية :

١ - تمهيد ويشمل الكلام عن كل من المسئولية والجزاء .

٢ - معنى الضمير فى اللغة والاصطلاح .

٣ - آراء العلماء حول طبيعة الضمير .

٤ - عوامل انحراف الضمير .

٥ - تربية الضمير .

٦ - اختلاف الضمير .

٧ - عصمة الضمير بين الفلاسفة والإسلام .

٨ - رأى الإسلام فى الضمير .

٩ - وخز الضمير .

١٠ - يقظة الضمير .

تمهيد :

يجدر بنا قبل الحديث عن موضوع الضمير وما يتعلق به من موضوعات أن نتحدث عن المسئولية والجزاء باعتبار أن الإنسان في المسئولية الأخلاقية يكون مسئولا عن تبعات أفعاله أمام قوة داخلية هي ضميره فيشعر الإنسان بالرضا والسعادة إذا ما أطاع ضميره ويشعر بالتأنيب ووخز الضمير إذا خالفه .

أما الحديث عن الجزاء فلأنه ناتج عن المسئولية ومترتب عليها إذ إنه نتيجة حتمية ولازمة تنتج عن إطاعة الضمير أو مخالفته .

المسئولية والجزاء :

مما لاشك فيه أن المسئولية إنما تقع على أفعال الإنسان الإرادية وشبه الإرادية . ومن ثم يجب الحديث عن المسئولية وبيان معناها وأنواعها .

ولقد تعددت تعريفات المسئولية بمعناها العام إلا أنها تدور كلها حول إطار واحد وهو تحمل نتائج الأعمال التى تصدر من الإنسان .

فالمسئولية : " إقرار المرء بما يصدر عنه من أفعال وباستعداده لتحمل نتائجها " (١) .

وعرفها الأستاذ الدكتور / محمود محمد مزروعة بأنها : " صلاحية الإنسان لأن يتحمل تبعات ما يصدر عنه من أفعال " (٢) .

كما عرفت بأنها : " حالة للمرء يكون فيها صالحا للمؤاخذة على أعماله ، ملزما بتبعاتها المختلفة " (٣) .

---

(١) الأخلاق النظرية : د / عبد الرحمن بدوى ص٢٢٣ .
(٢) دراسات فى علم الأخلاق ص٤٥ .
(٣) العقيدة والأخلاق : د / محمد بيصار ص٢٤٨ .

فكل إنسان مسئول عن أفعاله وما ينتج عنها من تقصير أو إهمال فالمدرس مسئول عن نتائج عمله الدراسى ، وكذلك القائد مسئول عن الضباط والجنود ، والوالد مسئول عن أولاده ، وهكذا كل راع مسئول عن رعيته .

وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث قال : " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده وهومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " (١) .

ولاشك فى أن الإقرار بالمسئولية فقط لا يكفى ، بل لابد من تحمل نتائج الأفعال وهذه النتائج إما أن تكون معنوية تتمثل فى " الاحتقار أو الاحترام " أو قانونية وتتمثل فى " الثواب أو العقاب " أو اقتصادية وتتمثل فى " التعويض المالى عن الضرر اللاحق للضحية " أو دينية وتتمثل فى " النعيم أو الجحيم فى الآخرة " أو أخلاقية وتتمثل فى " المدح أو الذم " .

والمسئولية بناء على هذا تتنوع إلى عدة أنواع :

١ - المسئولية الدينية : هى التزام المرء بأوامر الدين ونواهيه ، وقبوله لما يترتب على مخالفتها ، بحيث يكون ملتزما بما ينتج عن هذه المخالفة ، من جزاءات محددة وعقوبات مقررة .

٢ - المسئولية الاجتماعية : هى التزام المرء بقوانين المجتمع الذى يعيش

---

(١) فيض القدير بشرح الجامع الصغير : عبد الرؤف المناوى ٣٨/٥ . وورد فى صحيح البخارى ٤٤/٨ كتاب الأحكام بلفظ آخر .

فيه ، وبتقاليده ونظمه سواء أكانت وضعية أم أدبية ، وتقبله لما ينتج عن مخالفته لها من عقوبات شرعها المجتمع للخارجين على نظمه ، أو تقاليده وآدابه .

٣ - المسئولية الأخلاقية : هى حالة تمنح الإنسان من القدرة أمام نفسه ما يعينه على تحمل تبعات أعمالها وآثارها [١] .

ولقد ذكر القرآن الكريم هذه المسئوليات مجتمعة فى قول الحق - تبارك وتعالى - : { يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون }[٢] .

٤ - المسئولية القانونية : التزام الإنسان بتحمل تبعات الخروج على القوانين السياسية أو الوضعية فمثلا من يتعدى على مال الغير بالسرقة فعليه أن يواجه بالحبس أو التغريم أو هما معا .

٥ - المسئولية الطبيعية : التزام المرء بتحمل تبعات أفعاله إذا خرج على النواميس الطبيعية . فالنار طبيعتها الإحراق فلو أمسك إنسان ما بقطعة منها فإنها تحرقه وعليه أن يتحمل هذا الألم [٣] . لأن هذه هى سمة القوانين الطبيعية فهى لا ترحم صغيرا أو توقر كبيرا تنفذ حكمها على من يعصيها ولو كان طفلا صغيرا أو شيخا وقورا .

وما من شك فى أن الإنسان فى كل أنواع التبعات المتقدمة يكون مسئولا عن عمله أما قوة خارجة عن ذاته ، فإما أن يكون الله - سبحانه وتعالى - ، أو المجتمع والقانون السياسى الذى تمثله الدولة ، أو الطبيعة ، إلا فى المسئولية الأخلاقية فإنه

---

(١) العقيدة والأخلاق : د / محمد بيصار ص٢٤٨ .
(٢) الآية ٢٧ من سورة الأنفال .
(٣) انظر : دراسات فى علم الأخلاق ص٤٥ .

لا يكون مسئولا أما قوة خارجة عنه تثيبه أو تعاقبه ، ولكنه مسئول أما قوة داخلية هى ضميره . فقانون الضمير هو الذى يحاسب الإنسان على نتائج أعماله فى الإحساس بالرضا والسعادة والراحة إذا أطاع أوامره ، وبالتأنيب والتعذيب إذا عصاه .

وعلى ذلك يمكن تعريف المسئولية الخلقية بتعريف يحفظ لها هذه الخاصية التى خالفت بها المسئوليات الأخرى .

فالمسئولية الخلقية بناء على ذلك هى : " التزام أدبى حر أمام قوة ذاتية دون خوف عقوبة أو انتظار مثوبة خارجية " (١) .

أما كلامنا عن الجزاء فسوف يكون باعتبار أنه ناتج عن المسئولية ومترتب عليها إذ إنه نتيجة حتمية لازمة لتحمل المرء تبعات أعماله . فالجزاء هو : " الثواب على فعل الخير والعقاب على فعل الشر " .

ولاشك أن الجزاء بهذا المعنى يتناول أنواعا كثيرة هى الجزاء الطبيعى والقانونى والاجتماعى والأخلاقى والدينى . إلا أننا سوف نتحدث عن الجزاء الأخلاقى فقط باعتباره صادرا عن اتباع أوامر الضمير أو الخروج عنها ، وهذا هو الجزاء الداخلى الذى يتمثل فى الشعور بالرضا والراحة والطمأنينة نتيجة القيام باتباع أوامر الضمير ، وفى المقابل الشعور بالندم والتأنيب والعذاب عند مخالفته .

ومن هنا يمكن تعريف الجزاء الخلقى بأنه : " جملة ما يلاقيه الإنسان من ثواب أو عقاب صادرين عن ذاته نتيجة إطاعة ضميره أو مخالفته " (٢) .

---

(١) دراسات فى علم الأخلاق ص٤٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٥١ .

معنى الضمير فى اللغة والاصطلاح :

لاشك فى أنه لم يحظ أى موضوع بمزيد من البحث مثلما حظى الضمير ، فقد كان مثارا لاهتمام كبير ليس فقط لدى علماء الأخلاق فى كل العصور والأزمان ، بل تعداهم إلى علماء النفس والاجتماع والفلاسفة والصوفية ورجال القانون . ومن ثم كان لابد من إلقاء الضوء على تعريفه لغة واصطلاحا .

الضمير فى اللغة :

الضمير* هو السر وداخل الخاطر وكل ما هو مضمر فى النفس . يقول صاحب لسان العرب : " الضمير السر وداخل الخاطر والجمع الضمائر . قال الليث : الضمير الشىء الذى تضمره فى قلبك تقول : أضمرت صَرْف الحَرْفِ إذا كان متحركا فأسكنته ، وأضمرت الشىء أخفيته ... وأضمرته الأرض : غيبته إما بموت وإما بسفر " (١) .

وقد ورد بمعنى القلب وباطن الإنسان ، ومنه العزم على الشىء فى القلب إذا كان بمعنى أضمر ، والاحتواء والاشتمال إذا كان بمعنى التضمين .

جاء فى المصباح المنير أن : " ضمير الإنسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر ... وأضمر فى ضميره شيئا عزم عليه بقلبه ... وضمنت الشىء كذا جعلته محتويا عليه فتضمنه أى فاشتمل عليه واحتوى " (٢) .

---

* الضمير فى النحو العربى يراد به ما كنى عن متكلم أو مخاطب أو غائب ، ولم يرد بمعنى الشعور المميز بين الخير والشر والقوة الباطنية الداخلية التى تميز بين الخير والشر ، وكل ما ورد عنه هو أنه السر وداخل الخاطر وكل ما هو مضمر فى النفس .
أما هذا المعنى فقد ورد فى اللغات اللاتينية والأوربية بكلمة Consience بمعنى المعرفة الباطنة والسر والفكر الباطن والعقل . انظر : الأخلاق النظرية هامش ص٥٣ .

(١) ابن منظور ٤/٢٦٠٦ وما بعدها باب الضاد .
(٢) أحمد المقرى الفيومى ٢/٣٦٤ باب الضاد .

وبالنظر فى هذه التعاريف اللغوية للضمير نجد أنه عبارة عن الأمر الذى يخفيه الإنسان فى نفسه سواء أكان هذا الأمر خيرا أم شرا . فالضمير لا يحكم بالخير أو الشر وإنما هو قوة باطنية داخلية فى الإنسان وقد أشار إلى ذلك فلاسفة الإسلام ومتصوفوه عندما تكلموا عن قوة المحاسبة والمراقبة النفسية وهى بلا شك ما يقصده علماء الأخلاق .

الضمير فى الإصطلاح :

لقد ورد فى المعجم الفلسفى للمفكر الفرنسى " لالاند " ما يأتى :

١ – الضمير الأخلاقى هو خاصية العقل فى إصدار أحكام معيارية تلقائية ومباشرة * على القيمة الأخلاقية لبعض الأفعال الفردية المعنية . وحين يتعلق هذا الضمير بالأفعال المقبلة فإنه يتخذ شكل صوت يأمر أو ينهى ، وإذا تعلق بالأفعال الماضية فإنه يترجم عن نفسه بمشاعر السرور (الرضا) أو الألم (التأنيب) . وهذا الضمير يوصف تبعا للأحوال المختلفة بوصف الواضح ، الغامض ، المريب ، المخطىء الخ .

٢ – عرفه " بوارك " بأنه : " معرفة الخير والشر " .

---

* والتلقائية والمباشرة يقصد بهما هنا ما يقصد بالأمور الفطرية التى يولد الإنسان مزودا بها أى أن الشعور بها لا يحتاج إلى تأمل وروية وإعمال فكر ولقد اهتم أنصار مذهب الحاسة الخلقية بهذه المسألة اهتماما كبيرا،وقرروا أن مدلولها يختلف عن مدلول الحواس الخمس المعروفة ، لأن وظيفة هذه الحواس إدراك أعراض المحسوسات .
أما وظيفة الحاسة الخلقية فهى إدراك خيرية الأفعال وشريتها وإصدار أحكام تقيم هذه الأفعال ، وهى تشبه إلى حد كبير حاسة الجمال أو قوة التفكير من حيث إنها متأصلة فى طبائع البشر ، ولكنها تضعف بالإهمال وتقوى بالمران وتنمو بالتربية الحسنة وتذبل فى البيئة الفاسدة .
انظر : فلسفة الأخلاق د / توفيق الطويل ص٣٣٩ ، دراسات فى فلسفة الأخلاق د / محمد نصار ص١٨٦ .

٣ – وعرفه " لوسن " بأنه : " ملكة الإقرار والاستهجان " [١] .

وقد عرفه صاحب المعجم الفلسفى بالآتى : " استعداد نفسى لإدراك الحسن والقبح من الأفعال ، مصحوبا بالقدرة على إصدار أحكام أخلاقية مباشرة على قيمة بعض الأفعال الفردية . ويطلق أيضا على الملكة التى تحدد موقف المرء إزاء سلوكه ، أو تتنبأ بما يترتب على هذا السلوك من نتائج أدبية واجتماعية " [٢] .

٤ – القوة العاتبة المؤنبة على فعل كل ما هو مخالف للقانون الخلقى ، وقد ذهب إلى هذا المعنى " كارليل " حيث يعتقد أن الضمير وليد الشعور بمخالفة القوانين ويظهر هذا من خلال عبارته المأثورة التى قال فيها " لولا المعصية لما ربيت فينا ضمائر " أى لولا المعصية لما شعرنا بذلك الألم الخاص الذى نشعر به عند مخالفتنا لقانون ما .

٥ – يستعمل الضمير ويراد به مجموعة المبادىء الأخلاقية الأولى : أى المبادىء الأولية العامة التى يدين بها جميع الناس كمبدأ حرية الفرد ، ومبدأ العدل ، ومبدأ أحقية الفرد بملك ما يملك إلى غير ذلك .

٦ – يراد به أيضا مجموعة المبادىء الأخلاقية الخاصة التى يسير بمقتضاها فرد من الأفراد : أى مجموعة المبادىء التى يعمل بمقتضاها الفرد والتى تكون أخلاقيته [٣] .

وهذه التعريفات السابقة ليست عربية إذ إن العرب استعملوا لفظ القلب أو الباطن أو السريرة بدل الضمير ، ويرى البعض أن اصطلاح الضمير بمعناه

(١) نقلا عن : الأخلاق النظرية ص٥٦ ، ٥٨ .
(٢) د / جميل صليبا ٧٦٣/١ .
(٣) مذكرات علم الأخلاق : د / أبو العلا عفيفى ص٥٢ وما بعدها .

الراهن هو وليد القرن التاسع عشر . وأن العرب قد استعملوا عوضا عنه كلمة زاجر التي تؤدى معنى الضمير بعض الأداء فقالوا : " من لم يكن له من نفسه زاجر لا تنفعه الزواجر " (١) .

هذا وقد عرفه الأستاذ منصور على رجب بأنه : "مركز التوجيه فى الإنسان" وعرفه أيضا بأنه : "محكمة استئناف كبرى ترجع إليها كل أعمال الإنسان الخارجية " (٢) .

هذا ولقد عرفه الأستاذ الدكتور محمود محمد مزروعة بأنه : " قوة ذاتية فى الإنسان تأمره بالخير وتنهاه عن الشر وتثيبه إن أطاعها وتعاقبه إن عصاها " (٣) .

وذلك لأن الإنسان إذا ما عزم على أن يعمل عملا من أعمال الخير ، أو أراد الإقدام على عمل من أعمال الشر فإنه يحس بقوة باطنية منبعثة من داخله تناديه بعمل الأول بل وتحسنه له وتشجعه عليه وتبعث الطمأنينة والسرور وتهون عليه ما يلاقى من الأذى فى سبيل نصرة الحق وأداء الواجب ، كما أنها تأمره باجتناب الثانى وتوبخه على عمله ويشعر بوخز الضمير إذا أطاع هوى نفسه وعصى هذه القوة ركونا أو طمعا فى منفعة شخصية أو لذة عاجلة قصيرة الأمد .

ونحن إذا ما تأملنا هذا التعريف لرأينا أن كل فعل من أفعال الإنسان بل وكل تصرف من تصرفاته يمر بمراحل ثلاث :

١ - دور تشريع الفعل أى قبل إقدام الإنسان على العمل .

٢ - دور التنفيذ أى أثناء القيام بالعمل .

---

(١) انظر : الأخلاق فى الإسلام د / يعقوب المليجى ص٢٤٧ .
(٢) تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٢٢٨ .
(٣) دراسات فى علم الأخلاق ص٥٥ ، والخلق الكامل : محمد أحمد جاد المولى ٣٠٩/٢ .

٣ - دور المحاسبة للإثابة أو العقاب عليه أى بعد إتمام العمل .

ومن هنا يمكن القول بأن نفس الإنسان تشتمل على السلطات الثلاث وهى السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية ولا يمكن فصل إحداها عن الأخرى [١] .

ومن المعانى المتعلقة بالضمير الوزع والرضا والارتياح والتأنيب والوخز والندم وسوف نعرف كلا من هذه المطصلحات :

الوزع : هو كف النفس عن الهوى ، والوازع هو من يقوم بكف النفس عن الهوى كالضمير والقلب ... الخ .

والوزع هو السعادة التى ينالها الإنسان من عمل الفضيلة ، والشقاء من عمل الرذيلة .

ولاشك فى أن وازع الضمير يفعل ما لا يفعله وازع القوة والسلطان ، فإذا ألف المرء أن يستمع إلى صوت ضميره وأن يراقب ربه ويخشى عقابه فقد أمنَ المجتمع بوائقه واستراح من كثير من شروره . أما إذا كان الاعتماد على وازع السلطان وحارس القانون . فإن الحارس قد يغفل . والقانون قد يؤول للتخلص من سلطانه . لذلك تكثر الجرائم وتنتشر المفاسد إذا قلت التربية الدينية .

فالواجب على رعاة الأمن والنظام والاستقرار أن يهتموا بتربية أفراد المجتمع عن طريق الدين والفضيلة ، وبذلك يستريحوا ويوفروا جهودا ضائعة فى غير فائدة .

---

(١) انظر : العقيدة والأخلاق : د / محمد بيصار ص٢٥٠ ، كتاب الأخلاق : أحمد أمين ص٥٥ ، دراسات فى علم الأخلاق ص٥٦ .

الرضا والارتياح : هو السرور الذى يشعر به الإنسان عقب فعل الخير ، أو السكينة التى ينزلها الله على قلوب عباده المحسنين .

التأنيب أو وخز الضمير أو توبيخه : هو الألم المعنوى الذى يعقب كل فعل سيء فيسبب الاضطراب فى نفس المسيء وعندئذ يشعر باختلال فى حركة النفس المطمئنة .

الندم : هو ألم يصيب النفس عند ارتكاب الخطايا والآثام فيندم صاحبه على ما فعل وينوى التوبة والإنابة .

التأنيب : ألم شديد قهرى يصحبه أسف وندم على فعل الشر ، وقد لا يكون الأسف عاطفة أخلاقية ، فقد يأسف الإنسان على فوات مصلحة له ، أو ضياع فائدة كان يصبو إليها .

أسباب الندم ووخز الضمير :

ترجع هذه الأسباب إلى سوء الفعل والخطايا والجرائم التى يرتكبها الإنسان وجميعها يترتب عليه الإلزام والمسئولية . والوخز عقاب واقع والندم استغفار مقبول .

أما وخز الضمير فقد يؤدى إلى الندم ، وقد يذهب الندم بوخز الضمير [1] .

تأنيب الضمير والندم :

من الأحوال الرئيسية للضمير ما يسمى بتأنيب الضمير ، وهو تعبير عن عدم رضا الضمير بما ارتكبه الإنسان .

---

(١) انظر : أصول الفلسفة ١٧/٤ .

ويترجم الضمير عن عدم رضاه بثلاثة أحوال :

١ - الشعور بالعار : وهذا ينجم عن جبن الإنسان أمام الواجبات وما يستتبع ذلك من خجل المرء من نفسه .

٢ - التأنيب : وهو لوم الإنسان لنفسه على انتهاكه لقاعدة أخلاقية أقر بها وسار عليها المجتمع واعتنقها كمبدأ من مبادئه .

٣ - الندم والتوبة : هو قبول العقاب عن الذنب الذى ارتكبه الإنسان والتصميم على تجنب فعل الشر مستقبلا .

وتضاف حالة أخرى ألا وهى الأسف : وهو السخط على ما حدث ولا يقتصر الأسف على الأخطاء التى يرتكبها المرء ، بل قد يمتد إلى أحداث عرضية حينما يقول المرء لآخر : إنى آسف لما وصلت إليه حالك من فقر وسوء [1] .

(١) انظر : الأخلاق النظرية ص٧٧ .

آراء العلماء حول طبيعة الضمير :

لقد تباينت آراء العلماء حول طبيعة الضمير فمن قائل إنه فطرى ناظرا إلى الناحية الخلقية أو التكوينية التى فطرها الله فى طبع الإنسان وركزها فيه منذ ولادته ، ومن قائل إنه مكتسب رائيا أنه ثمرة تخلقها التربية عن طريق الزمن والمواقف والتجارب والمؤثرات الخارجية ، وهناك من لا يرى لا هذا ولا ذاك أى أنه ليس فطريا ولا مكتسبا بل ينكره .

١ - الضمير غريزة فطرية تولد مع الإنسان وهى وإن لم يظهر أثرها فى بداية حياته إلا بقدر ضئيل إلا أنها موجودة فيه بالقوة ، بمعنى الاستعداد لمزاولة سلطاتها وتتحول من هذا الاستعداد إلى الممارسة الفعلية كلما كبر الإنسان ونضج خلال سنى حياته . والإنسان عن طريق هذه الغريزة يستطيع التمييز بين الخير والشر كما تستطيع العين التمييز بين الضوء والظلمة أو بين الأبيض والأسود .

وهذا يعنى أن الضمير غير مكتسب من البيئة ولا علاقة له بها . والقائلون بفطرية الضمير تشعبت آراؤهم فمنهم من يقول إنه غزيرة فطرية حسية مثل " جان جاك روسو " ومنهم من يقول إنه حاسة خلقية مثل " شافتسبرى " و" هتشون " ، ومنهم من يقول إنه قوة عقلية مثل " إيمانويل كانت " ومع اختلافهم فهم مجمعون على فطريته .

وحجة الفريق القائل بفطرية الضمير وجوده عند الحيوانات العجماوات فمن باب أولى يكون موجودا لدى الإنسان الذى كرمه الله بالعقل .

يقول " روسو " " لأحد قد علّمَ كلب روسو أن يطارد الخلد - حيوان - ويقتله

بينما هو لا يأكله " [1] ويقصد بذلك أن الكلب مزود بقوة فطرية تبين له ما يجب عليه أن يفعل . ويستدلون أيضا بأن القطة إذا ما خطفت شيئا ما من المائدة فإنها تأخذه وتجرى به بعيدا خوفا من العقاب والإيذاء ؛ وذلك لأنها تملك قوة غريزية عرفت بها أنها اقترفت ذنبا .

هذا ولقد أورد الشيخ محمد أحمد جاد المولى دليلا على كون الضمير فطريا وذلك بوجوده لدى الهمجيين سكان البوادى حيث يترك الواحد منهم أهله وأولاده فى سبيل نصرة قومه ، ويرى التخاذل والجبن فى هذا منقصة وعارا [2] .

ومن القائلين بمذهب الحاسة الأخلاقية " شافتسبرى " و" هتشون " وهما يريان أن الضمير قوة فطرية غريزية موضوعها الخير والشر ، كما هو شأن المحسات بالنسبة للحواس الخمس . وهى لا تستند إلى كسب بل هى قدر مشترك بين الناس جميعا ، مع اختلافها عندهم من حيث القوة والضعف ، فكما أن الله - سبحانه وتعالى - وهب الإنسان ومنحه حواسا كثيرة كالسمع واللمس والشم مثلا - لتمييز المبصرات والمسموعات والملموسات والمشمومات منحه أيضا حاسة خلقية فطرية تميز بين الخير والشر ، وتحسه على فعل الخير وتنهاه عن فعل الشر .

ويجلى " شافتسبرى " هذا الرأى بقوله : " إذا سألنى سائل وقال : لماذا يجب عليك أن تبتعد عن القذارة إذا كنت منفردا ؟ فأول ما يتبادر إلىّ أن هذا السائل رجل قذر ، وأنه من الصعب أن أدخل فى ذهن مثل ذهنه الوسخ حقيقة النظافة ، ومع ذلك إذا أغضيت عن هذه الصعوبة أمكننى أن أجيبه بأن السبب فى ذلك أن لى أنفا يشم . فإذا تثاقل وقال : فإذا كنت مزكوما ، أو فاقد حاسة الشم

(١) نقلا عن : تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٢٣٠ .
(٢) انظر : الخلق الكامل ٢/٢١٠ .

مثلا ، فلماذا ؟ أجبته بأنى أبغض أن أرى قذرا ، كما أبغض أن يرانى الناس كذلك فإن ألح وقال : فإن كنت فى حجرة مظلمة لا ترى شيئا ، فلماذا؟ أجبته بأنى حتى فى هذه الحالة ، وليس لى أنف يشم ، ولا عين تبصر ، لا يزال إحساسى كما كان ، يألم من القذر ، ونفسى الإنسانية تشمئز من الدنس ، ولو لم أكن كذلك لانحططت عن درجة الإنسان ، ولأبغضت نفسى لأنها نفس حيوان ، ولما أمكننى أن أحترم تلك النفس التى لا تعرف قيمتها ، ولا ما يليق بها . كذلك سمعت الناس يتساطون لماذا ينبغى أن يكون الإنسان شريف النفس محبا للفضيلة فى الخفاء ؟ وهو سؤال لا أريد أن أصرح باعتقادى فيمن يسأله " (١) .

ويقترب من الرأى الأول القائل بفطرية الضمير رأى " كانت " ويمكن أن يطلق عليه " مذهب الفطريين العقليين " حيث يقول " كانت " بفطرية الضمير إلا أنه يخالفه فى القول بأنه حاسة ويقرر أنه قوة عقلية ولدت مع الإنسان وطبعت فى خلقه الأول .

ويقسم العقل إلى قسمين :

١ - العقل النظرى : يختص بإدراك المحسوسات ويعتمد فى معارفه على الحس والتجربة فهو لذلك لا يصلح أن يكون مصدرا للأخلاق لما يأتى :

أ - اعتماده فى أحكامه على الحواس والتجارب وهى كثيرة الخطأ والضلال .

ب - اعتماده على مقدمات لا تؤمن صحتها بطريق قطعى يقينى .

٢ - العقل العملى : ويسميه " كانت " الضمير ويحدده ويعرفه بأنه قوة

---

(١) نقلا عن : العقيدة والأخلاق : د/ محمد بيصار ص٢٥١ وما بعدها .

فطرية عقلية موجودة فى الإنسان وكامنة فيه منذ الأزل وإلى الأبد ولا تكتسب بالتجربة ولا تعتمد على الحواس بل إنها لا علاقة لها بالمادة أصلا ، لأنها كما يقول " كانت " شعاع من نور هبط من القوة العليا المطلقة غير المحددة إلى النفس الإنسانية به تهتدى وبه تميز بين الخير والشر ، وهو في الوقت ذاته قاض معصوم عن الخطأ فى قضائه وحكم لا يضل فى أحكامه [1] .

ولذا كان نداء الضمير واجب الاستجابة والتنفيذ ، وكانت أوامره مطلقة غير مقيدة بشرط ، أو محددة بحد . وهذا يعتبر دعامة الأخلاق ومصدرها وحارسها وقاضيها ، وهو ذلك كله فى وقت واحد ، ومن غير تفرقة فيه بين جانب وآخر ، لأنه جماع الخير .

ورأى " كانت " فى الضمير يشبه إلى حد ما وجهة النظر الإسلامية التى عبر عنها بعض فلاسفة الإسلام " كالغزالى " و" مسكويه " .

ونكتفى بما ذكره الإمام الغزالى فى باب المراقبة والمحاسبة من أن للمراقب فى عمله نظرين : نظر قبل العمل ، ونظر بعد العمل . أما قبل العمل فلينظر إلى همته وحركته ، أهى خالصة أم لهوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويثبت حتى ينكشف له بنور الحق . فإن كان لله تعالى أمضاه ، وإن كان لغير الله استحيا من الله ، وكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه . وأما النظر الثانى للمراقب عند الشروع فى العمل ، فذلك بتفقد كيفية العمل ، ليقضى حق الله فيه ويحسن النية فى إتمامه ، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه [2] .

---

(١) العقيدة والأخلاق : د / محمد بيصار ص٢٥٣ وما بعدها ، والخلق الكامل ٣١٤/٢ وما بعدها ، أصول الفلسفة : محمد أمين واصف ١٤/٤ ، تاريخ الأخلاق : د/ محمد يوسف موسى ص٢٧٠ .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ٣٨٧/٤ ، ٣٩٠ .

ويقول الإمام الغزالى فى محاسبة النفس بعد العمل : " ينبغى أن يكون للمرء آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة ، أو شهر ، أو يوم ، حرصا منهم على الدنيا " (١) .

وخلاصة ما ذكره الإمام الغزالى فى باب المراقبة والمحاسبة تفيد أنه يعتقد فى قوة يسميها تارة نورا إلهيا ، وتارة أخرى معرفة إليها تستند قيادة المرء فى أعماله وهدايته إلى سواء السبيل وصراط الله المستقيم (٢) .

٢ - الضمير مكتسب من البيئة والمجتمع والتربية وهذا نقيض الرأى الأول وهذا يعنى أن الإنسان يولد ولا يوجد عنده إطلاقا شىء يسمى الضمير .

وأشهر من ذهب إلى هذا الرأى " استيورت ميل " و" جون لوك " و"مونتانى " و" دوركايم " و" أوجست كونت " .

وحجة هذا الفريق الواقع المشاهد لأن الناس منذ فجر التاريخ ليسوا سواء أى أنهم غير متساويين فى انبعاث هذه الحاسة من داخلهم . فقد تكون قوية عند البعض ضعيفة عند البعض الآخر ، كما أن حكمهم على الأشياء بالخير أو بالشر مختلف أيضا ، ومما لا شك فيه أن مرجع ذلك هو انعكاس أثر البيئة الاجتماعية . وهذا يدل على أنها قوة مكتسبة وليست فطرية فى الإنسان .

ويعرض أصحاب هذا الرأى عدة وقائع تثبت ذلك منها :

أ - أن نظام الرق كان مشروعا فى العصور القديمة ، حتى أن بعض

---

(١) إحياء علوم الدين ٣٩٢/٤ .
(٢) انظر : العقيدة والأخلاق ص٢٥٥ .

الفلاسفة أصحاب العقول القوية المستنيرة والقلوب الشريفة قد أباحوا هذا مثل " أرسطوطاليس " فقد جاء في كتابه السياسة ما يلى : " ومهما يكن من شيء فبين أن البعض بالطبع هم أحرار ، والآخرين بالطبع عبيد ، وأن الرق فى حق هؤلاء نافع بمقدار ما هو عادل " [1] .

ب – كانت القوانين الرومانية القديمة تنص على أن المرأة والأطفال يعتبرون ملكا للزوج كما لو كانوا متاعا وأنعاما ، ولذا كان للأب من بين الحقوق الأخرى الحق فى أن يعرض ابنته المولودة حديثا فى السوق العام إذا كانت لديه بنت أخرى سواها أو غيرها [2] .

جـ – فى بعض العصور فى انجلترا كانت المرأة المتزوجة لا تمكن من التصرف فى مالها أبدا وكان لزوجها الحق فى أن يتصرف فيه كيفما يحلو له . وقبل العهد " الفكتورى " بقليل جدا قام رجل ببيع زوجه وكان يقودها كالدابة وفى عنقها خطام [3] .

وهنا تظهر قيمة الإسلام وعظمته حيث كرم المرأة ومنحها حقوقا كثيرة منها أنه جعل لها ذمة مالية خاصة بها .

د – كان الناس يتفاخرون بالاحتلال الأجنبى وذلك منذ عهد قريب أما الآن فقد أصبح هذا الأمر عارا لا تقبله الضمائر ولا تركن إليه النفوس [4] .

هـ – كانت عادة العرب فى الجاهلية قتل الأبناء خشية الفقر أو العار ، ولقد

---

(١) نقلا عن : تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٢٣٢ .
(٢) انظر : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص٥٦ .
(٣) المرأة والسياسة للكتاب الروائى شارلس جارفس نقلا عن : تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٢٣٣ .
(٤) انظر : فلسفة الأخلاق ص ٧١ .

نعى عليهم القرآن الكريم تمسكهم بهذه العادات وتلك التقاليد قال - تعالى - : {وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون } [1] . وقال - عز وجل : { قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم } [2] كما نهى أيضا عن ذلك بقوله - جل شأنه - : { ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم } [3] وبقوله - عز من قائل - : { ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا } [4] .

وأصحاب هذا - أى القائل بأن الضمير مكتسب - يقررون أن الضمير لو كان فطريا لما وجدت هذه الظواهر والوقائع التاريخية وحجتهم فى ذلك أن الناس فى جميع الأقطار وفى كل العصور يستشيرون ضمائرهم ، لكنها لا تسمعهم جميعا لحنا واحدا إذ أن ما يظهر عدلا وخيرا لبعض النفوس المخلصة فى عصر ما يظهر خلافه لنفوس أخرى مخلصة أيضا لكنها عاشت فى عصر آخر أو فى مكان آخر . ولذا فهم يرون أن الضمير لو كان فطريا ما شاهدنا هذه الظواهر ، كما أن تلاشى هذه الظواهر وعدم وجودها الآن دليل على أن للبيئة الاجتماعية أثرا كبيرا حيث إنها تكسب الإنسان ملكة المراقبة " الضمير " . ففى المجتمع الواحد قد تتنازع فيه مشارب الناس سواء فى سلوكهم أو فى حكمهم على سلوك الآخرين . فالبعض يرضيه طريق الفضيلة ويحكم على غيره من خلال سلوكه ، والبعض الآخر لا يرضيه هذا السلوك ويحكم على غيره من خلال سلوكه ، بل إننا كثيرا ما نشاهد اختلافا فى المجتمع الواحد على نظام الحكم أو السياسة أو الاقتصاد ، وكل ذلك

---

(١) الآية : ٥٩ من سورة النحل .
(٢) جزء من الآية ١٤٠ من سورة الأنعام .
(٣) جزء من الآية ١٥١ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٣١ من سورة الإسراء

يعد مظهرا من مظاهر اختلاف الضمير ، وبالتالى دليلا قويا على أنه مكتسب وليس فطريا .

٣ - أصحاب هذا الرأى ينكرون وجود قوة تسمى الضمير لا فطرية ولا مكتسبة وإنما ينكرونه من أصله . ويقولون إنه لا يوجد شيء يسمى بالضمير ولا توجد فضيلة ولا قيم أخلاقية وكل هذا أكذوبة يجب القضاء عليها ؛ لأنها تعوق التقدم الإنسانى وهى خدعة من اختراع الضعفاء ليقيدوا بها سلطة الأقوياء .

ويتزعم هذا الرأى فريق من الفلاسفة الماديين أشهرهم " كليسكليس " قديما و" نيتشه " حديثا ومذهبه صدى للمذهب السوفسطائى القديم .

وهؤلاء ومن سار فى فلكهم ينكرون الفضائل ولا يعترفون بشيء اسمه العدل أو الإحسان أو العفو ... الخ ، وينادون بحذف هذه الألفاظ من المعاجم اللغوية ويمجدون الحروب والقوة .

هذا ويصور العالم الفرنسى " أندريه كريسون " ما ذهب إليه منكرو الضمير بل والحقائل الأخلاقية بصفة عامة فيقول : "يجب أن نحطم هذين القيدين تحطيما : قيد العادل والظالم حسبما جاء فى القانون الموضوع ، ولنتخط فى نظرنا إلى الأشياء ذلك الخير وذلك الشر . يجب أن نترك العنان لطبيعتنا المطلقة . يجب أن نكون كذلك فى بنيتنا الطبيعية وفى قوتنا العقلية ، وفى مزايانا الخلقية . يجب أن يكون لنا من الجسارة ما به نحيا حياة حرة سافرة وفى وضح النهار . وإذا ما اقتضى ذلك أن نسير فوق طريق من الجماجم فعلينا أن نسحقها بأقدامنا ، دون أن يتحرك ضميرنا بملام . يجب أن تكون لنا قلوب قاسية . يجب أن نرسل صرخة الحرب دون وجل أو ندم فى وجه مصطلحات العالم ، ومصطلحات أخلاق القطيع . يجب أن نرسلها من البوق النشوان بخمرة النصر وحميا الكبرياء " [١] .

(١) المشكلة الأخلاقية والفلسفة : ص٦٥ وما بعدها ترجمة الإمام عبد الحليم محمود وأبى بكر ذكرى .

ويقول أيضا عنهم : " إن القوانين الأخلاقية - ما هى - إلا مبتدعات جديرة بالازدراء هى وأصحابها الذين وضعوها . ولن تكون المعاهدات الدولية أكثر من قصاصات أوراق . إن الإرادة الوحيدة الصحيحة إنما هى إرادة القوة . وإن الحق الحقيقى إنما هو الذى يعلو ولا يعلى عليه . إن القوة هى كل شىء ، وهى وحدها التى تقرر الحق " (١) .

هذا هو مجمل آراء العلماء فى طبيعة الضمير .

إلا أنه يترتب على الرأى الأول القائل بفطرية الضمير عدم الحاجة إلى التعليم أو التربية ، لأن القوة المهذبة والمؤدبة موجودة فى ذاتية الإنسان توجهه إلى الخير وتمنعه من الشر .

ومما لا شك فيه أن هذا الرأى خطأ إذ المشاهد أن الضمائر تختلف باختلاف الظروف والأحوال ، ولو كان قوة فطرية وغريزة طبيعية لكان واحدا عند جميع الأمم ولدى كل الأفراد والأجيال وفى جميع الأحوال .

وقد أشار الشيخ " محمد جاد المولى " إلى أن الشىء الواحد قد تراه جماعة بضميرها الخلقى حسنا بينما أخرى قبيحا ، وسر هذا التباين راجع إلى اختلاف المكان والزمان والعادات .

كما أشار " بسكال " إلى ذلك عندما ذكر أن العدل والظلم أمران يختلفان بحسب اختلاف البقاع والأمكان ، فالانتقال بضع درجات جغرافية يجعل العدل ظلما والظلم عدلا ، وأى شىء أعجب من أن يكون الفاصل بين العدل والظلم نهرا أو بحرا أو جبلا (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص٦٦ .
(٢) انظر : الخلق الكامل ٢/٣١٢ .

أما بالنسبة للرأى الثانى القائل بأن الضمير كسبى فهو غير صحيح على إطلاقه إذ أنه لو كان كذلك لوقع اختلاف بين الناس فى تقييم الفضائل والرذائل تبعا لاختلاف العصور والأمم ، بل وباختلاف البيئات أيضا ، كما أنه تختلف تقاليدهم وقوانينهم وهذا مخالف للواقع إذ أننا نرى الناس وقد اتفقت كلمتهم على المبادىء الأخلاقية فى مختلف الأزمان والعصور ، ومهما كان هناك من تفاوت فى المسائل الجزئية إلا أنها لا تؤثر على أصول الأخلاق المقررة وقواعد السلوك العامة (١) .

هذا ولو كان الضمير راجعا إلى التربية والتجربة لكان فى استطاعة قوة القوانين أن تبرز ضمائر حية لكن الواقع المشاهد يدل على عدم ذلك .

أما بالنسبة للرأى الثالث الذى ينكر وجود الضمير بل والقيم والفضائل فإنه لا يعتد به ولا يعول عليه ، نظرا لأنه ينزع من الإنسان أفضل نعمة وهبها الله إياه ألا وهى العقل الذى كرم الله به الإنسان على سائر مخلوقاته ، ويحل الغرائز محلها كما أنه لا يجعل لتصرفات الإنسان وأفعاله مرجعا يرجع إليه من خلق أو دين أو عرف أو قانون ، ومن ثم يفعل الإنسان ما يشاء دون اكتراث بأى شىء .

وهذا الرأى وإن كان يدعو فى ظاهره إلى الحرية ، إلا أنها والحالة هذه تعد حرية قاصرة إذ أى حرية هذه تلك التى يزاول الإنسان بمقتضاها كل ما يحلو له دون مراعاة لحرية وحقوق الآخرين ؟؟

إنها بلاشك حرية تمثل الفوضى حيث لا اعتراف بقوانين وضعية أو سماوية . ومن ثم يصير المجتمع أشبه ما يكون بمجتمع الغابة الذى يسيطر فيه القوى على الضعيف ويعتبره مملوكا له . وهذا بلاشك لا يتلاءم والفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها (٢) .

---

(١) انظر : العقيدة والأخلاق ص٢٥٦ .

(٢) انظر : تاريخ الأخلاق : د/ محمد يوسف موسى ص٢٨٢ - ٢٨٦ ، دراسات فى فلسفة الأخلاق ص٢٨٩ .

وخلاصة القول :

أن الضمير " استعداد فطرى لدى الإنسان " ويعتبر نتاج عوامل مختلفة بعضها يرجع إلى الجبلة والطبيعة ، وبعضها الآخر إلى البيئة . فليس الضمير قوة فطرية غريزية مكتملة يولد بها الإنسان ، كما أنه ليس قوة مكتسبة بلا استعداد سابق . بل هو استعداد فطرى يولد به الإنسان ثم ينمو هذا الاستعداد ويتزايد نموه بمرور الأيام متأثرا بالتربية والتهذيب عن طريق البيئة .

الفرق بين الضمير والقلب :

بين الضمير والقلب والفكر اختلاف واضح وبين ، إذ أن الضمير يصدر أحكامه بأسلوب مبهم وغامض ، دون أن يكون الإنسان متفطنا كل التفطن إلى الأسباب والعوامل والمقدمات التى أدت إلى هذه الأحكام فكأن أحكام الضمير إلهام من الله .

أما العقل فيصدر أحكامه بناء على دراسة الأسباب والعلل وبحث الوسائل والمقدمات . فالأحكام العقلية تقوم على مقدمات فكرية وأدلة منطقية مع اعتبار الأسباب والعلل .

ويتضح الفرق جليا بين الضمير والعقل عندما يتعارضان فى أحكامهما ، فكثيرا ما يفكر المرء فى أمر من الأمور ويدرسه دراسة وافية ، ثم يصدر العقل حكمه بناء على هذه الدراسة الواعية . لكنه وفى نفس الوقت يحس الإنسان شعورا داخليا بعدم الاطمئنان إلى حكم العقل هذا ويجد نفسه غير مستريح أو واثق بهذا الحكم ، وهذا الشعور الداخلى المبهم هو صوت الضمير [1] .

---

(١) انظر : دراسات فى علم الأخلاق ص٥٨ وما بعدها .

عوامل انحراف الضمير :

بالرغم من أن الضمير يبدو وكأنه صوت الإلهام الإلهى فى الكيان الإنسانى إلا أنه غير معصوم وكثيرا ما ينحرف عن جادة الصواب والحق ، وذلك نتيجة لعدة عوامل نذكر منها :

١ - البيئة :

فالبيئة التى يعيش فيها الإنسان تؤثر عليه إما سلبا أو إيجابا ، وفى مثل هذا يكون التأثير سلبا كما نرى فى قرى الصعيد حيث الناس يتمسكون بعادة أخذ الثأر ، وينشأ الأطفال متأثرين بهذه العادة فإذا كبروا طبعت ضمائرهم على حب هذه العادة الظالمة المقيتة . ولذلك نرى أن القاتل منهم لا ينزعج أبدا إذا ما ارتكب جريمة القتل انتقاما لقتل قريبه . بل ربما لا يستريح ضميره أبدا إلا إذا ارتكب هذه الجريمة [١] .

٢ - العواطف والانفعالات :

فالعواطف والانفعالات والمشاعر غير الواعية كثيرا ما تعمى الضمير عن الحق والعدل معا وتجعله عرضة للخطأ وذلك كالأم التى تعطى ابنها طعاما منعه عنه الطبيب حرصا على صحته فتؤذى صحته وتزيد علته وتؤخر شفاءه كل ذلك بدافع الحنان والشفقة [٢] .

ومثال أخر إذا استجار هارب مذنب بإنسان فخبأه ثم جاء رجال الشرطة يبحثون عنه فأنكره حفاظا على حياته . فإننا نجد أن للعاطفة دورا فى ذلك حيث أفسدت حكمه وجعلته عرضة للوقوع فى الخطأ .

---

(١) انظر : دراسات فى علم الأخلاق ص٥٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص٦٠ .

٣ - العادات السيئة :

فالإنسان إذا تعود على أمر سيء قبيح فإنه قد يصعب تغييره والعدول عنه نظرا لرسوخه فى نفسه ، وبالتالى فإن ضميره يغيب عن هذا الأمر وكأنه أنس إليه أو رضى به ، إذ الضمير بطول ممارسة صاحبه لذلك الأمر يأتى عليه وقت يفقد حساسيته بالنسبة إليه كالشخص الذى اعتاد التدخين أو شرب الخمر مثلا [١] . بالرغم من أن النفس بطبيعتها تنفر منهما لكراهة طعمهما وأضرارهما لكنها العادة والولوع بتقليد الآخرين دون وعى [٢] .

٤ - المصلحة الشخصية :

كثيرا ما يضعف الضمير أمام المنفعة الذاتية أو المصلحة الشخصية فإذا ما حاول الضمير أن يرفع صوته فسرعان ما يسكته صاحبه بالحجج الواهية والمسوغات الباطلة . وذلك كأمين المخزن الذى يختلس من عهدته ويقوم بتزوير الكشوف الخاصة بالمخزن معللا ذلك بأن المخزن ملىء بالخيرات وأن ما يأخذه لن ينقصه شيئا ، وأن الدولة غنية لا تتأثر بذلك وهكذا يستخدم كل العلل التى تسكن وتخدر ضميره [٣] .

ولعل أقرب مثال حى على ذلك حادثة مدينة نصر والأشقياء الثلاثة الذين اغتالوا السيدة البريئة وطفليها ، متعللين بالديون الكثيرة التى أثقلت كاهلهم . فهم فى هذه الحالة لم يغب ضميرهم فقط بل عدم ، إذ لو كان لديهم مثقال ذرة من ضمير لتراجعوا عن فعلتهم الشنعاء ولوقفوا مع أنفسهم لكنه الإجرام المتأصل فى نفوسهم المتمكن فى قلوبهم ، ومن ثم ارتكبوا ما ارتكبوا ولقوا جزاء ما صنعوا .

---

(١) انظر : دراسات فى علم الأخلاق ص٦٠ .
(٢) انظر كتاب الأخلاق ص٢٧ .
(٣) المرجع السابق ص٦٠ .

٥ - الفهم الخاطيء للدين :

إذ أننا نجد الكثير من الناس قد يفهم الدين وما ورد فيه من نصوص فهما خاطئا ومن ثم يقع فى المحظور ، وذلك بإقدامه على أفعال لا يقرها شرع أو دين ولا يقبلها عقل سليم قويم ولا تتلاءم مع فطرة سليمة نقية فيعيث فى الأرض فسادا معتمدا على فهم خاطيء لبعض نصوص هذا الدين وذلك كقول الله - سبحانه وتعالى - : { إن الله غفور رحيم } [١] وكقوله - جل وعلا - : { هو أهل التقوى وأهل المغفرة } [٢] .

مع أنه لو فهم هذا الدين فهما سليما صحيحا لوقف طويلا عند قوله - سبحانه وتعالى - : { نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم } [٣] .

ومن ثم يستقيم سلوكه ويستيقظ ضميره .

٦ - الأعراف * :

فالإنسان كثيرا ما يتأثر بما جرى عليه العرف فى أمة من الأمم ويحكم به حكما آليا بدون فكر ولا روية ولا تدخل للعقل والإرادة فيه . ولاشك أن التاريخ ملىء بكثير من الأعراف التى لا تتلاءم والعقل السليم والفطرة القويمة مثل وأد البنات

---

(١) جزء الآية ١٩٩ من سورة البقرة .
(٢) جزء الآية ٥٦ من سورة المدثر .
(٣) الآية ٤٩ من سورة الحجر .
* الأعراف التى نتحدث عنها هى الأعراف الفاسدة والهدامة إذ هناك من الأعراف ما تحقق معنى التعاون والبر والخير ، والأمثلة أمامنا كثيرة كهذا الذى يحدث فى القرى من مجاملة فى المآتم ومشاركة فى الأفراح ومواساة فى الأحزان مما يدل على أن هناك أعرافا بناءة وهذا ما نهدف إليه

عند بعض قبائل العرب فى الجاهلية ، ودفن الزوجة وهى حية مع زوجها الميت ، واستعباد النساء ، والرق ، والحكم الفردى المطلق ، والتعدى على الحريات .

فالضمير الذى يستسلم لأحكام العرف معتقدا أنها واجبة التنفيذ يكون ضعيفا لا يحفل بحكمه .

وذلك لأن العرف لا يصلح أن يكون مقياسا خلقيا لأنه أمر اعتبارى يختلف من أمة إلى أمة ومن مجتمع لآخر كما أنه يقتل حرية التفكير فى الإنسان وأنه يطبق تطبيقا أعمى وبطريقة آلية لا فكر فيها ولا روية .

هذا ولقد ذكر الدكتور أبو العلا عفيفى عدة أسباب لعدم صلاحية العرف لأن يكون مقياسا أخلاقيا منها :

١ – أنه أمر اعتبارى خاص بأمة أو قبيلة والمقياس الأخلاقى يجب أن يكون عاما مطلقا .

٢ – أنه يطبق تطبيقا آليا أعمى من غير تفكير فى أصله أو الغاية التى يرمى إلى تحقيقها .

٣ – أنه لا يراعى فيه دائما الناحية الخلقية وإن روعيت اعتبارات أخرى كتاريخ الأمة أو القبيلة وسمعتها ومصلحة الأفراد أو الجماعات .

٤ – أنه قاتل لحرية التفكير لأن قوته وسيطرته على نفوس المتعارفين يكادان لا يتركان للفرد مجالا للاختيار فى عمله .

٥ – أنه كثيرا ما يقرر أمورا تتنافى مع روح الأخلاق أحيانا ومن ثم لا يصلح أن يكون مقياسا للأخلاق .

٦ - أنه ليس نسبيا باعتبار المكان الذى يطبق فيه فحسب بل باعتبار الزمان أيضا إذ العرف يتغير بتغير الزمان فى المكان الواحد وتاريخ كل أمة يثبت لك أنواع العرف التى نشأت فيها واختلاف هذه الأنواع .

٧ - أن العرف أهوج أخرق يدفع إليه الوجدان لا التفكير [١] .

٧ - القوانين الوضعية * :

فنظرا لأنها من صنع الإنسان الذى يخضع للبيئات والأهواء والمؤثرات المختلفة فإنها تتغير من آن لآخر لأنها توضع لأقوام فى حالات خاصة فإذا ما تغيرت هذه الأحوال تغير القانون ، كما أنها قد تكون صالحة فى وقت دون آخر ، وأن السلطة الخارجية من قضاة وجند ورجال شرطة هى التى تقوم بتنفيذه ، لذا لا يحفل الضمير بتنفيذ هذه القوانين .

ومن هنا فهناك فروق كثيرة بين القانون الأخلاقى والقانونى الوضعى من أهمها :

١ - أن القوانين الوضعية قابلة للتغير ، وضعت لقوم فى أحوال خاصة ، فإذا تغيرت تلك الأحوال تغير القانون ، وإنا لنرى الحكومة من حين لآخر تعمد إلى بعض القوانين فتغيرها لأن أحوال الناس اقتضت ذلك ، أما القوانين الأخلاقية فثابتة لا تتغير وإنما يتغير رأى الناس فيها .

٢ - أن القانون الوضعى قد يكون صالحا وقد يكون غير صالح كما إذا

---

(١) انظر : مذكرات علم الأخلاق ص٩١ .

* مجموعة الأوامر والنواهى التى تضعها الحكومة وهى لا تكافىء المطيع ولكن تعاقب العاصى بعقوبات تختلف باختلاف الجريمة .

أخطأ واضع القانون فوضع ما لا يتفق مع مصلحة الأمة أو أساء القصد فى الوضع ، ولكن القانون الأخلاقى متى ثبت أنه أخلاقى لا يكون إلا صالحا .

٣ - القانون الوضعى لا ينظر فى حكمه إلا إلى الأعمال الخارجية . أما القانون الأخلاقى فينظر إلى الأعمال والباعث عليها ، بل قد يحكم على العمل بأنه شر وإن كانت نتائجه حسنة لأن الباعث عليه سيء .

٤ - القانون الوضعى تقوم بتنفيذه سلطة خارجية من قضاه وجند ورجال نيابة وسجون وإصلاحية أحداث الخ ، أما القانون الأخلاقى فتنفذه قوة داخلية " قوة النفس " وهى الوجدان .

٥ - القانون الوضعى لا يكلف الأشخاص إلا بالواجبات التى عليها يتوقف بقاء المجتمع غالبا كاحترام النفس والمال ، أعنى لا يكلفهم إلا بالضروريات ، أما القانون الأخلاقى فيكلفهم بالضروريات والكماليات معا ، فهو يكلف الناس أن يكونوا أخيارا جهدهم * وأن يصلوا إلى أقصى درجة فى الرقى يمكنهم الوصول إليها . فالقانون الوضعى مثلا ينهى عن التعدى على مال الغير بالسرقة ونحوها ، ولكن لا يكلف الأفراد أن يتصرفوا فى أموالهم أنفسهم بما ينفعهم وينفع أمتهم ، أما الأخلاق فإنها تأمر الأفراد أن يحسنوا التصرف فى أموالهم وتندبهم إلى أن يتبرعوا للأعمال النافعة كالمستشفيات والجمعيات الخيرية ، وتعد آثما من فى استطاعته أن يوصل الخير إلى الناس ثم لم يفعل[1] .

---

* أى بقدر طاقتهم .

(١) كتاب الأخلاق ص١١٦ وما بعدها .

٨ - الآراء الإجتماعية :

مما لاشك فيه أن الضمير يتأثر بما يثار حوله من آراء إجتماعية ومن ثم نرى الإنسان عندما يرغب فى الإقدام على فعل ما يقف أمام ضميره متسائلا عن مدى ملاءمته لعادات هذا المجتمع وأعرافه وتقاليده . وعن مدى استحسان المجتمع لهذا الفعل أو استهجانه وعن مدى نفع قومه به أو إضراره لهم فإذا كان صادقا مع نفسه عند إجابته عن هذه التساؤلات أصدر حكمه على كل ما يصدر عنه من أفعال أو تصرفات مؤسسا على العقل مبنيا على الروية والتروى بعيدا عن الزلل أو الوقوع فى الخطأ .

تلك هى أهم العوامل المؤدية إلى انحراف الضمير . إلا أنه يمكن التغلب عليها وذلك بالعمل على نشر العلم وانتشاره إذ هو الطريق الوحيد وإن شئت فقل الأوحد الذى يقضى على ما تعيشه كثير من البيئات فى ظلام دامس متمسكة بعاداتها وأعرافها وتقاليدها فالأمر الذى لا شك فيه هو أن العلم ينمى عند ذويه انفعالات واعية ومشاعر يقظة ، كما أنه يقضى على العادات والتقاليد قضاء مبرما بحيث يولد فى النفوس شعور جماعى مؤدٍ إلى عدم إقدام الفرد على كل ما فيه أثرة وحب للذات مضحيا بمصلحة المجتمع فى سبيل تحقيق مصلحة شخصية وهنا يصبح المجتمع كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، ويوم أن يتحقق هذا يحق لنا أن نقول : إن الضمير قد استقام وأن الفطرة قد عادت سليمة نقية من كل ما قد يشوبها ويؤثر عليها من هذه العوامل السالفة .

تربية* الضمير :

لا شك فى أن ملكات الإنسان وقواه تنمى بالتربية والتمرين والتثقيف وتضعف بالإهمال فالجسد مثلا يقوى عند اتباع أساليب الرياضة البدنية مع المحافظة على النظام الغذائى اللازم لتقوية الجسم فى مراحل نموه المختلفة وتحت إشراف طبى ، وكذلك العقل ينمو بالقراءة والاطلاع والتأمل والبحث والاستنتاج والمقارنة .

والضمير ليس بدعا فى ذلك أو مختلفا عما سبق فهو أيضا ينمو بالتربية والتدريب والتثقيف والتهذيب ويضعف بالإهمال أو العصيان .

وتتمثل تقوية الضمير فى عدة أشياء منها :

١ - الإيمان بالله واتباع أوامره فالحق - سبحانه - هو الذى يعلم ما فى السرائر ويعلم خبايا وخفايا النفوس فهو الذى يراقب العبد فى كل أعماله وفى حركاته وسكناته .

ولاشك فى أن الإيمان الصادق ينمى ضمير المسلم وهذا يصوره الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " (١) .

والعبادة والتوجه إلى الله هنا المقصود بها أداء الشعائر والعمل معا ، وكل سلوك يسلكه الإنسان فى حياته قولا وفكرا وعملا .

---

* المقصود بتربية الضمير أن يكون حساسا يميز بين الخير والشر بدقة .

(١) الحديث بتمامه فى صحيح مسلم بشرح النووى ١٥٧/١ وما بعدها كتاب الإيمان ، فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١١٤/١ كتاب الإيمان .

٢ – مداومة مراقبة الضمير والإذعان لصوته والنزول على أوامره واستخدام الإرادة الخيرة .

قال – تعالى – :[وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى] (١) .

وقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – : " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتْبَعَ نفسه هواها وتمنى على الله " (٢) .

٣ – وجود البيئة الصالحة التى تتعهد النشء بالرعاية والاهتمام والتهذيب والتثقيف وتنمية المشاعر السامية كالغضب للحق والغيرة على الشرف والأنفة من المهانة ودفء الوالدين وحنانهما يعمل على نمو الضمير وتعليم القيم الأخلاقية منذ الصغر فتنمو فيهم وتترعرع فيكون ضميرهم حيا قويا يجعل الطفل مثلا لا يقوم بالغش فى الامتحان مع إتاحة الفرصة له ، ويجعل المراهق رغم نداء غريزته لا ينتهك ما حرم الله من أعراض الناس (٣) .

٤ – تهذيب غريزة الأثرة فى الإنسان بحيث يرتبط ضميره بضمير المجتمع الذى يعيش فيه فيشعر بما يشعر به الآخرون (٤) .

٥ – القراءة الواعية المتأنية الرشيدة الهادفة التى تنمى ملكات النفس وتزيد قواها (٥) .

---

(١) الآيتان ٤٠ ، ٤١ من سورة النازعات .
(٢) سنن الترمذى ٦٣٨/٤ كتاب صفة القيامة .
(٣) انظر : علم نفس النمو د/ حامد زهران ص١٨٩ .
(٤) انظر : فلسفة الأخلاق ص٧٩ .
(٥) انظر : دراسات فى فلسفة الأخلاق ص٢٠٣ .

٦ – مصاحبة الأخيار حيث إنهم يكونون عونا للإنسان فى حياته ومماته حيث يتعلم منهم ما يجب أن يكون .

قال على – كرم الله وجهه – : " عليكم باقتناء الإخوان فهم عدة فى الدين والدنيا ألا ترى إلى قول الله – عز وجل – حكاية عن أهل النار فى النار " فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم " (١) .

وقيل أيضا : " إن الأخ الصالح خير لك من نفسك لأن نفسك قد تأمرك بالسوء ، والأخ الصالح لا يأمرك إلا بالخير " .

وقد ضرب رسول الله – ﷺ – مثالا توضيحا لأثر وثمرة مصاحبة الصالحين وعواقب مخالطة الأشرار حيث قال – عليه الصلاة والسلام – : " إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يجذبك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحا خبيثة " (٢) .

وقال أيضا : " الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل " (٣) .

قال الشاعر عدى بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى(٤)

---

(١) الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ من سورة الشعراء .
(٢) فيض القدير ٤/٣ .
(٣) سنن الترمذى ٥٨٩/٤ كتاب الزهد ، سنن أبى داود ٢٦١/٤ كتاب الأدب .
(٤) نقلا عن : أدب الدنيا والدين للماوردى ص١٦٧ .

وقد قيل : " صديقك أو صاحبك رقعة فى ثوبك فانظر بم ترقع ثوبك " .

٧ – اتباع أوامر الدين الصحيح واجتناب نواهيه ، وهذا بخلاف بعض التفسيرات الخاطئة التى تفسر الدين بما يتفق والأهواء والرغبات الخاصة .

٨ – مجاهدة النفس وذلك بالتغلب على ما تهواه والإنتصار على ما ترغبه .

قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – عقب غزوة : " قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدِمٍ . وَقَدِمْتُمْ من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : مجاهدة العبد هواه " (١) .

٩ – التبصر وقد كان هذا منهج " سقراط " فى تربية الضمير عن طريق ترويض النفس عن طريق التبصر ؛ إذ التبصر مرد الفضائل كلها ، بمعنى أن يقوى العقل ضد الشهوة . ولكى نصل إلى التبصر كما رأى " سقراط " الذى هو طريق السعادة يجب أن نسير على العدل والاعتدال والشجاعة والإخلاص ، ولقد ضرب " سقراط " مثلا أعلى فى الشجاعة وفى الإخلاص للقانون حيث قابل الموت بصدر رحب ورفض الهروب من السجن حتى يموت راضيا عن نفسه ، فضرب بموته أقوى الأمثال (٢) .

ويضعف الضمير ويخفت صوته عن طريق عدة أمور منها :

١ – مخالفة أوامر الضمير وعدم الاستجابة لها واتباع الهوى الأعمى .

قال – سبحانه وتعالى – : " أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله " (٣) .

---

(١) فيض القدير ٥٥١/٤ . رواه البيهقى عن جابر – رضى الله عنه – فى كتاب الزهد وقال إسناده ضعيف وتبعه العراقى إلا أنه يؤخذ بالضعيف فى فضائل الأعمال .
(٢) انظر : تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٢٣٩ وما بعدها .
(٣) جزء الآية ٢٣ من سورة الجاشية .

وقال – عز وجل – : " ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث " [1] .

٢ – مخالطة الأشرار التى لا تجلب سوى الوبال والنكال نظرا لأنهم يحملون الإنسان على عدم الخضوع للضمير .

قال – تعالى – : { وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا } [2] .

ولقد بين القرآن الكريم عاقبة مصادقة ومخالطة الأشرار حيث قال – جل شأنه – : { ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا } [3] .

قال بعض البلغاء : صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار ، وقالوا أيضا : من خير الاختيار صحبة الأخيار ، ومن شر الاختيار صحبة الأشرار .

قال بعض الشعراء :

مجالسة السفيه سفاه رأى ومن عَقْل مجالسة الحكيم
فإنك والقرين معا سواء كمثل قُدَّ الأديم من الأديم [4]

٣ – إطالة القراءة فى الكتب التى لا تعبأ بالقيم والفضائل .

---

(١) جزء الآية ١٧٦ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١١٢ من سورة الأنعام .
(٣) الآيات ٢٧ – ٢٩ من سورة الفرقان .
(٤) نقلا عن : أدب الدنيا والدين ص١٦٩ .

٤ – رؤية المسلسلات والأفلام والمسرحيات غير الهادفة التى لا غاية منها سوى إضعاف وإهدار صوت الضمير الحى فى الإنسان .

٥ – البيئة التى لا تعنى بتربية النشء والأسر التى تبالغ فى عقاب أولادها كل هذا يضعف نمو الضمير بالإضافة إلى عدم تعلم القيم الأخلاقية .

يقول الدكتور حامد زهران : " وكلما قل دفء الوالدين وكلما زاد عقابهما للطفل أدى ذلك إلى بطء نمو الضمير . وكلما تذبذب الوالدان فى تعليم الطفل القيم الأخلاقية وكلما تفاوت قولهما عن فعلهما أدى ذلك إلى بطء وضعف نمو الضمير عند الطفل " (١) .

(١) علم نفس النمو ص١٨٩ .

اختلاف الضمير :

بالرغم من أن الضمير عام عند كل الناس إلا أنه يتفاوت ويختلف من آن لآخر إما باختلاف الأفراد أو الأمم أو الأجيال فمن المبالغة والخطأ القول بأن الضمير هادٍ ومعصوم فى كل الأحيان وأنه لا تخطىء أحكامه .

فالضمير بالنسبة للفرد الواحد قد يختلف باختلاف عوامل كثيرة كالسن والزمن والصحة والتغذية والوسط الذى يعيش فيه . فالكل يشعر بأن حكمه فى الطفولة يختلف عن حكمه فى زمن الرجولة ، فهناك من الأمور ما تبدو للمرء وكأنها عظيمة ثم سرعان ما تلبث أن تتغير وتظهر الحقيقة بعد النضج العقلى . كذلك الأمراض التى تصيب الإنسان تجعله لا يستطيع أن يزن الأشياء بميزانها الصحيح ، كما أنها تجعله لا يستطيع أن يميز بين الحسن والقبيح نظرا لذلك .

وعلى العكس من ذلك نرى ضمائر تميز تمييزا دقيقا بين الحسن والقبح بمهارة فضمائر الناس ليست سواء بل هى مختلفة إذ منها الصحيح ومنها السقيم ومنها الأعمى ومنها البصير .

يقول الحق – سبحانه وتعالى – : { فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور } [1] .

ومما يؤكد ذلك :

١ – فى نيوزيلندا أن الأم لو حاولت ضرب أولادها فإنهم يكونون فى حل من إعدامها قانونا .

---

(١) جزء الآية ٤٦ من سورة الحج .

٢ - بعض القبائل الأفريقية يقتلون من أفراد قبيلتهم كل من أصابهم الكبر حتى وإن كانوا آباءهم .

٣ - بعض القبائل فى الهند من سكان الجبال ضمائرهم حية وفى غاية الاستقامة فالفضائل شائعة بينهم كتناسى الأحقاد والتمسك بالعفة والقناعة إلى غير ذلك من الفضائل [١] .

وكما يختلف الضمير من فرد لآخر ومن أمة لأخرى يختلف كذلك باختلاف الأجيال فإذا ما قارنا بين الجيل الحاضر والجيل السابق نجد فرقا كبيرا .

فقد كان الرق شائعا ومنتشرا بين الناس ومع ذلك لم تجد الضمائر عيبا فى ذلك ، وكذلك كان الناس منذ عهد قريب يتفاخرون بالاحتلال الأجنبى ، أما الآن فقد أصبح هذا الأمر عارا لا تقبله الضمائر ولا تركن إليه النفوس [٢] .

وقد أباح مذهب الرواقيين الانتحار مع أنه الآن يعد جريمة لا مبرر لها .

من هنا نجد أن الضمائر ليست واحدة عند الجميع بل تختلف من فرد لآخر ومن أمة لأخرى ومن جيل لآخر . لذا فالقول بأن الضمير لا يخطىء ومعصوم قول غير صحيح على إطلاقه بل إنه يخطىء ويصيب بدليل أن ما تراه أمة خيرا قد يكون شرا عند قوم آخرين .

هذا وبالرغم من عدم عصمة الضمير من الخطأ بل إنه يخطىء ويصيب شأن كل الصفات الإنسانية إلا أنه توجد مبادىء عامة لا تختلف حولها الأمم بل هى عامة ومنتشرة بين جميع الأمم كالشفقة والعدل وإن اختلف تطبيقها .

---

(١) انظر : فلسفة الأخلاق ص٧٠ .

(٢) المرجع السابق .

عصمة الضمير بين الفلاسفة والإسلام :

إن بعض الفلاسفة يرون أن الضمير هادٍ ومعصوم عن الخطأ .

يقول " جان جاك روسو " وهو يخاطب الضمير : " أيها الضمير أيها الضمير أنت غريزة إلهية وصوت سماوى خالد ومرشد أمين لكائن جاهل محدود ، ولكنه ذكى وحر أنت حاكم لا يخطىء حكمه على الخير والشر ... " (١) .

يرى " روسو " أن أحكام الضمير ما هى إلا إحساسات قلبية ولا يمكنها أن تخطىء والأغلاط الأخلاقية التى يرتكبها الإنسان فى سلوكه إنما ترجع إلى عدم الإصغاء إلى هذه القوة الغريزية التى أودعها الله فى النفوس .

ويصرح بعض الذاهبين إلى هذا القول بأنه لا سيطرة للقوانين على القلوب " أى الإحساسات القلبية " إنما هى التى تسيطر على القوانين وتحكم عليها .

وهذا يوافق ما ذهب إليه المتنبى عندما قال : " إنما تنجح المقالة فى المرء إذا صادفت هوى فى النفس " .

وما ذهب إليه " روسو " ذهب إليه كثير من الفلاسفة .

يقول " كانت " عن الضمير " إنه هادٍ وموثوق به ومعصوم عن الخطأ وهو فطرى فى الإنسان " .

وهذا لا يبعد كثيرا عما ذهب إليه " بسكال " فقد قال : " إن الأخلاق الصحيحة تسخر من الأخلاق " ويقصد بذلك أن أحكام الضمير الصادرة عن إحساس القلب أعلى قيمة من نظريات الأخلاق التى فرقت الفلاسفة وجعلتهم شيعا وأحزابا (٢) .

---

(١) نقلا عن : الأخلاق النظرية ص٥٣ وما بعدها .
(٢) نقلا عن : فلسفة الأخلاق ص٧٢ وما بعدها .

وهنا يرد سؤال وهو : هل الإسلام ينظر إلى الضمير على أنه معصوم * أم ينظر إليه على أساس أنه يخطىء ويصيب ؟

إن الإسلام ينكر عصمة الضمير والأدلة كثيرة على ذلك منها على سبيل المثال :

١ - قول الحق - سبحانه وتعالى - : { ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه } [١] .

٢ - قوله - عز وجل - : { من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا } [٢] .

٣ - قوله - جل وعلا - : { يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم } [٣] .

وسواء أكان الضمير قوة فطرية أم مكتسبة فهو غير معصوم عن الشر الأخلاقى فقد قال " أرسطو طاليس " مقولته الشهيرة فى كتابه الأخلاق إلى نيقوماخس : " ليس لأجل العلم بما هى الفضيلة أوغلنا فى هذه الأبحاث ، بل من أجل أن نتعلم كيف نصير فضلاء وأخيارا " [٤] .

---

* بناء على ما ذهب إليه الفلاسفة من أن الضمير معصوم من الزلل مبرأ من الخطأ . يرد تساؤل هل كان من الممكن أن يكتفى بالضمير كهادٍ ومرشد أم لابد من إرسال رسل وإنزال كتب ؟
وللرد على هذا التساؤل نستطيع أن نقول أن الضمير وحده غير كاف إذ لابد من إرسال رسل وإنزال كتب تهدى الناس إلى الطريق الأقوم والسبيل الأسلم خاصة فيما يتعلق بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات وصدق الله العظيم : { رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل } .
وصدق الله العظيم القائل مبنيا قاعدة الثواب وأساس العقاب { وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا } .

(١) جزء الآية ١١١ من سورة النساء .
(٢) الآية ١٥ من سورة الإسراء .
(٣) جزء الآية ١٠٥ من سورة المائدة .
(٤) ٢٢٩/١ نقلا عن : تأملات فى فلسفة الأخلاق ص٢٣٨ .

رأى الإسلام فى الضمير :

لقد اهتم الإسلام بالضمير وبتكوينه وبين أهميته ومدى إصلاحه للشخصية كلها ، فهو لا ينكر وجوده بل يعترف به وهذا واضح من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

أولا : الأدلة من القرآن الكريم :

١ - قال - تعالى - : { ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد } [١] .

فهذه الآية الكريمة تشير إلى أن الحق - سبحانه وتعالى - لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ويعلم ما فى الصدور [٢] . ولاشك أن ذلك يدل على وجود الضمير ، لأن الوسوسة تكون من الشيطان ويقصد بهذا النفس الأمارة بالسوء .

٢ - قال - جل شأنه - : { وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون * وإخوانهم فى الغى ثم لا يقصرون } [٣] .

٣ - قال - سبحانه وتعالى - : { وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى } [٤] .

٤ - قال - تعالى - : { فأما الذين فى قلوبكم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب * ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا } [٥] .

---

(١) الآية ١٦ من سورة ق .
(٢) انظر : التفسير الكبير : الفخرالرازى ١٦٢/٢٨ .
(٣) الآيات ٢٠٠ - ٢٠٢ من سورة الأعراف .
(٤) جزء الآية ١٥٢ من سورة الأنعام
(٥) جزء الآية ٧ وجزء الآية ٨ من سورة آل عمران

فالوسوسة والنزغ والزيغ والأمر بالعدل كل هذه الأشياء من طبيعة عمل الضمير .

والدليل على وجود الضمير هذه الأوامر عندما يقول صوت الضمير كن عادلا هذب نفسك احترم الآخرين ساعدهم .

والضمير فى القرآن الكريم يتلخص فى تقسيم شخصية الإنسان إلى ثلاث نفوس :

النفس الأولى : هى الأمارة بالسوء أى المغرضة والشريرة .

النفس الثانية : هى النفس اللوامة والمقصود بها الضمير . إذ هى التى تلوم الإنسان عند فعل الشر والمنكر وارتكاب السيئات وتراجعه فى كل عمل يقوم به أو ينوى القيام به .

والإنسان إذا اتبع هذه النفس ورعاها حق رعايتها أصبحت نفسا مطمئنة راضية مرضية ، وهى تمثل القسم الثالث من شخصية الإنسان . والضمير دينيا هو النفس اللوامة وعلميا حسب نظرية " فرويد " هو " الأنا الأعلى " .

ومن معانى الضمير بل أساسه ومنطلق وجوده التقوى إذ هى أساس كل عمل ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب .

ومن معانى الضمير أيضا ما عبر عنه القرآن الكريم بالفطرة قال- تعالى - : { فطرت الله التى فطر الناس عليها } [1] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : " كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عن لسانه ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " [2] .

---

(١) جزء الآية ٣٠ من سورة الروم

(٢) فيض القدير ٥/٣٣ . وورد فى سنن الترمذى ٤/٤٤٧ كتاب القدر بلفظ آخر وهو " كل مولود يولد على الملة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يشركانه " قيل يا رسول الله فمن هلك قبل ذلك ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عليه عاملين .

والضمير هو النية الداخلية غير المرئية بداخل النفس ، والتى لا يعلمها إلا صاحبها بعد الله – سبحانه وتعالى – وهو المسئول عن صلاحها أو فسادها .

يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى " (١) .

ثانياً : الأدلة من السنة النبوية المطهرة :

١ – قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " ألا وإن فى الإنسان مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب " (٢) .

ومما لا شك فيه أن المقصود بالقلب هو الضمير .

٢ – قال – عليه الصلاة والسلام – : " البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس " (٣) .

قال العلماء إن " البر " بمعنى الصلة واللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة . ومعنى " حاك في صدرك " أى تحرك فيه وتردد ولم ينشرح له الصدر وحصل فى القلب منه الشك وَخَوْفُ كونه ذنبا .

فهذا الحديث بلا شك يدل على أن فى النفس الإنسانية شعورا خلقيا بالإثم ، ولذلك يكره فاعل الإثم أن يطلع عليه الناس .

٣ – روى عن وابضة بن معبد – رضى الله عنه – أنه قال : أتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنا أريد أن لا أدع شيئا من البر والإثم إلا سألته عنه وإذا عنده جمع فذهبت أتخطى الناس فقالوا إليك يا وابضة عن رسول الله إليك

---

(١) الحديث بتمامه فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٩/١ كتاب بدء الوحى
(٢) الحديث بتمامه فى مسند أحمد ٢٧٠/٤
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١١١/١٦ كتاب البر والصلة والآداب

يا وابصة فقلت أنا وابصة دعونى أدنو منه فإنه من أحب الناس إلى أن أدنو منه فقال لى ادن يا وابصة ادن يا وابصة فدنوت منه حتى مست ركبتى ركبته فقال يا وابصة أخبرك ما جئت تسألنى عنه أو تسألنى فقلت يا رسول الله فأخبرنى قال : جئت تسأل عن البر والإثم قلت نعم فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها فى صدرى ويقول يا وابصة استفت نفسك البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك "[1] .

هذا الحديث بلا ريب يشير إلى الضمير الأخلاقى وأنه قوة فطرية أو استعداد فطرى .

وفى نفس المعنى يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة " [2] .

هذا ولعل خير ما نختم به كلامنا عن الضمير هو الحديث الشريف الذى يشير صراحة إلى الحس والضمير الأخلاقى ألا وهو قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : " ضرب الله تعالى مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة . وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تتعوجوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه ؛ فإنك إن فتحته تلجه ، فالصراط : الإسلام ، والسوران : حدود الله ، والأبواب المفتحة : محارم الله تعالى ، وذلك الداعى على رأس الصراط : كتاب الله ، والداعى من فوق : واعظ الله فى قلب كل مسلم " [3] .

فهذا الواعظ الذى فى قلب كل مؤمن هو الحس الأخلاقى اى الضمير [4] .

---

(١) مسند أحمد ٢٢٨/٤ .
(٢) سنن الترمذى ٦٦٨/٤ كتاب صفة القيامة ، فيض القدير ٥٢٩/٣ .
(٣) فيض القدير ٢٥٣/٤ .
(٤) انظر : الأخلاق الإسلامية : عبد الرحمن حنبكه ٦٧/١ .

وخز الضمير :

ونختم كلامنا بالحديث عن وخز الضمير الذى يجعل الإنسان ذا ضمير يقظ ويخلق فيه النفس اللوامة التى أقسم بها الله فى محكم كتابه حيث قال : { لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة } [1] .

لاشك فى أن الألم النفسى الذى يشعر به الإنسان بعد اقتراف الذنب وارتكاب الخطأ والجريمة كل ذلك يدل على وجود الضمير الحى .

والضمير يمر بمرحلتين فإنه إذا اقتصر الأمر عند حد الملامة فقط كان ذلك تأنيبا للضمير . فأما إذا تعدى هذا الحد وانتهى إلى عدم العود إلى مثل هذه الأشياء فهذه هى التوبة .

وقد عرفها العلماء بترك المعاصى فى الحال والعزم على تركها فى المستقبل وتدارك ما سبق من التقصير .

والتوبة تكون واجبة عند اقتراف الذنب ولها شروط :

١ - الاقلاع عن المعصية .

٢ - الندم على فعلها .

٣ - العزم على عدم العود إليها أبدا .

هذا إذا ما تعلق الأمر بحق من حقوق الله . أما إذا تعلق الأمر بحق من حقوق البشر فإنه يضاف إلى هذه الثلاثة شرط رابع وهو الإبراء من حق صاحبها بمعنى أنه إذا كان مالا وما شابهه يرده إليه ، وإن كان فى غيبة استحله منها .

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة القيامة .

وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث قال : " من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه " (١) .

وقد تضافرت دلائل الكتاب والسنة على وجوب التوبة نظرا للراحة والطمأنينة التى يشعر بها الإنسان بعد التوبة النصوح . ومن ثم يجب على الإنسان ألا ييأس من رحمة الله .

قال - تعالى - : { قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا } (٢) .

ولنتأمل هذا الحديث القدسى الذى يشير صراحة إلى أهمية الاستغفار من الذنوب وذلك عن طريق الحوار الذى دار بين الحق - سبحانه وتعالى - وبين إبليس اللعين .

قال إبليس لربه : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم ! فقال له ربه بعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى " (٣) .

قال - تعالى - : { والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين } (٤) .

---

(١) صحيح البخارى ١١١/٧ .
(٢) الآية ٥٣ وجزء من الآية ٥٤ من سورة الزمر .
(٣) الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية : محمد المدنى ص٤٥ .
(٤) الآيتان ١٥٣ ، ١٥٤ من سورة آل عمران .

فهاتان الآيتان تشيران إلى أن الله قد أثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم وما ذلك إلا لندمهم ولوم أنفسهم جزاء ما فعلوا .

والله – عز وجل – يقبل توبة عباده ما لم يصلوا إلى مرحلة الغرغرة .

يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر " (١) .

وفترة التوبة هى الحياة الدنيا ، ولاشك أن أجل الإنسان مجهول بالنسبة له فهو يأتى على حين غرة ولذا كان من الحكمة التعجيل بالتوبة .

يقول الإمام الغزالى : " فمهما وقع العبد فى ذنب فصار الذنب نقد ، والتوبة نسيئة ، كان هذا من علامات الخذلان " (٢) .

ولقد وصف الرسول – صلى الله عليه وسلم – الإنسان الذى تسيئه السيئة وذلك عند اقتراف الذنب وتسره الحسنة عند فعل الطاعات بالإيمان حيث قال : " إذا ساءتك سيئتك ، وسرتك حسنتك فأنت مؤمن " (٣) .

ولاشك فى أن درجة اللوم الباطنى الذى يشعر به الإنسان تعكس صدق إيمانه مما يجعله ينظر إلى جسامة ذنوبه ، لكنها تختلف من إنسان لآخر تبعا للشعور الإنسانى بالتكليف(٤) . ومصداق ذلك قول الرسول – ﷺ – : " إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه " (٥) .

---

(١) سنن الترمذى ٥٤٧/٥ كتاب الدعوات .
(٢) إحياء علوم الدين ٤٥/٤ .
(٣) مسند أحمد ٢٥١/٥ ، ٢٥٢ .
(٤) انظر : دستور الأخلاق : د / عبد الله دراز ص٢٤٩ .
(٥) سنن الترمذى ٦٥٨/٤ كتاب صفة القيامة .

وهناك من الأدلة ما يدل على وجوب التوبة :

قال – تعالى – : { وتوبوا إلى جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون } [1] .

وقال – جل شأنه – : { استغفروا ربكم ثم توبوا إليه } [2] .

وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إنه ليغان على قلبى . وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة " [3] .

ولما سئل سيدنا على – كرم الله وجهه – عن الاستغفار قال : هو درجة العليين .

ولنضرب بعض الأمثلة التى توضح أثر الندم نتيجة غياب الضمير واقتراف الذنب .

يقول الأستاذ " محمد مهدى علام " : " إذا ارتكب المرء جرما ثم فكر فيه بعد أن عمله ، فشعر بألم نفسى لذلك الجرم ، فذلك الألم النفسى هو الندم أو تأنيب الضمير . فإن انتقل المرء خطوة بعد هذه بأن حمله ذلك التأنيب على إصلاح نفسه وتحاشى ذلك العمل وما شابهه فى المستقبل ، فقد أخذت التوبة تدب فى نفسه ، وينشأ الندم من شعور المرء بأن فعله يناقض مثله الأعلى ، أو مبدأه الأخلاقى الذى ارتضاه لنفسه ، أو عالمه النفسى الذى اعتاد أن يعيش فيه . فعين الندم ترنو بحسرة إلى ذلك الماضى الذى أصبح فى غير قدرة البشر تغييره ، وعين التوبة

---

(١) جزء الآية ٣١ من سورة النور .

(٢) جزء الآية ٣ من سورة هود .

(٣) صحيح مسلم ٤/٢٠٧٥ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه . ومعنى " ليغان " أى ما يتغشى القلب قال القاضى : المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذى كان شأنه الدوام ، فإذا فتر عنه أو غفل ، عدّ ذلك ذنبا واستغفر منه .

تتطلع إلى المستقبل ، يدفعها الأسف على ما مضى ، ويجذبها الأمل فى إصلاح ما تبقى . لهذا كان المخطىء وهو فى حالة ندم فقط فى حالة موت نفسى * ، أما وهو فى حالة توبة حقيقة ، فإنه يكون فى حالة حياة نفسية عظمى " [1] .

ومما يدل على عتاب النفس وتأنيب الضمير ما رواه الأحنف بن قيس أنه كان بصحبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فجاءه رجل فقال : يا أمير المؤمنين إن فلانا ظلمنى فأعدنى عليه . فرفع أمير المؤمنين درته وضرب بها رأسه فانصرف الرجل متذمرا . فقال عمر : علىَّ بالرجل فجىء به إليه فألقى إليه الدرة وقال له : اقتص . فقال الرجل : أدعه لله وانصرف . يقول الأحنف : ثم جاء عمر فدخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين ثم جلس وقال : يا ابن الخطاب كنت وضيعا فرفعك الله . وضالا فهداك الله . وذليلا فأعزك الله . ثم حملك على رقاب الناس فجاء رجل يستعديك على مَنْ ظلمه فَضَرَبْتَهُ . ماذا تقول لربك غدا ؟؟ وجعل يعاتب نفسه أشد العتاب .

وما من شك أن سلطان الضمير لا يقتصر أثره على الحياة الدنيا فقط بل يمتد إلى الحياة الآخرة ، وله دور هام عند المحاسبة فى دار الجزاء حيث يتقدم بين يدى فصل القضاء ويصدر حكمه على صاحبه قبل أن يصدر عليه الحكم الأعلى[2] .

---

* ويضرب مثلا لذلك بأن " شكسبير " كان موفقا فى تصوير الحالة التى آل إليها " ماكبث " بعد ارتكاب جريمته حيث قال : " حرام على جفنيك النعاس يا ماكبث لقد قتل ماكبث النعاس ... وهل فى استطاعة البحر الخضم أن يغسل ماؤه الزاخر تلك الدماء من يدى ؟ كلا بل الأرجح أن يدى هى التى ستخضب بما عليها من دم قان خضرة المحيط الأعظم " .

(١) فلسفة العقوبة ص٧٩ وما بعدها .

(٢) انظر : كلمات فى مبادىء علم الأخلاق : د/ عبد الله دراز ص ٣٤ .

قال - تعالى - : { وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا } [1] .

ونظرا لاهتمام العلماء بالضمير فقد نظم الإمام الغزالى فى وصف النفس وتأنيب الضمير قصيدة هائية بدأها بقوله :

ما بال نفسى تطيل شكواها ... إلى الورى وهى ترتجى الله

يفسد إخلاصها شكايتها ... ذاك الذى راعها وأرداها

لو أنها من مليكها اقتربت ... وأخلصت ودها لأدناها

لكنها آثرت بريته ... عليه جهلا به فأقصاها

أفقرها للورى ولو لجأت ... إليه من دونهم لأغناها

تشكو إلى خلقه كأنهم ... قد ملكوا نفعها وضراها

لو فوضت أمرها لخالقها ... وصححت صدقها وتكلاها

عوضها من همومها فرجا ... ولم يدعها بطول غماها

تسخطه فى رضا بريته ... تبا لها ما أجل بلواها

لو أنها للعباد مسخطة ... مرضية ربها لأرضاها

لدى نفس أحب أنعتها ... لتعرفوا نعتها وأسماها

فاسمع صفاتى لها لعلك أن ... تفهم ذا اللب سر معناها

تسعى إلى اللهو وهو غايتها ... يا ويلها ما أضر مسعاها

أزجرها وهى لى مخالفة ... كأننى لست من أوداها[2]

---

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الإسراء .

(٢) معارج القدس ص٢٠٧ .

يقظة الضمير :

لقد تميز المجتمع الإسلامى الأول بيقظة ضمير أفراده يقظة لازالت مضربا فى المثالية والسمو ، وقد ظهر هذا فى كل مناحى الحياة الإجتماعية وسوف نأخذ بعض الأمثلة كدليل على يقظة الضمير :

١ - في الاعتراف بالجريمة وتحمل العقوبة :

لاشك أن القانون يفرض عقوبات مادية رادعة على من يقومون بارتكاب الجرائم ، ولكن المخالفين يحاولون الإفلات والفرار من قبضته وفى غفلة من القانون والرقباء عليه يقدمون على أعمالهم مستخفين عن الأعين ، أو ظاهرين وقد ألبسوا عملهم الآثم ثوب القانون أو مستندين إلى شفاعة ذى سلطان ، أو إلى من يحمى ظهرهم إلى آخر ما نعرف من صور الانفلات من القانون .

إلا أن قانون الإيمان يختلف تماما عن قانون العقوبات إذ أن المؤمن إذا زلت قدمه وارتكب جرما وهو بطبيعته بشر يخطىء ويصيب سرعان ما يستيقظ ضميره ويدفعه إلى الذهاب ليد العدالة ليعترف بجريمته ويطلب العقوبة لنفسه تطهيرا من الآثام رجاء فى أن تكون كفارة له عن ذنبه وشفيعا له عند ربه لا يمنعه من الاعتراف أن يجلد أو تقطع يده أو تزهق روحه . فهذا ماعز بن مالك يأتى إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقول : يا رسول الله ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى ويطلب إقامة الحد عليه فيحد صابرا محتسبا ، وكذلك الغامدية التى قال عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد رجمها : " .... لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة توسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى " (١) .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١٥١/٤ كتاب الحدود باب حد الزنا .

لقد ساقهما الضمير إلى الرجم دون أن يكون شاهدا على كل منهما إلا الله تعالى . ولم يستطع اختلاف الليل والنهار أن ينسى الغامدية ما اقترفت من خطيئة بل أتت طائعة مختارة لتلقى مصيرها الذى رضيته لنفسها .

٢ - في رعاية القوانين والأمانات :

فبعد الفتح الإسلامى لبلاد فارس أتى إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الكثير من الغنائم التى يخف حملها ويغلو ثمنها ، أداها بأنفسهم جنود مخلصون لوجه الله لا يريدون جزاء ولا شكورا ، فقال عمر فى إعجاب وتقدير : إن قوما أدوا هذا لأمناء !

وقال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه إلى مكة فعرسنا فى بعض الطريق فانحدر بنا راع من الجبل ، فقال له : يا راعى بعنى شاة من هذه الغنم . فقال إنى مملوك فقال : - اختبارا له - : قل لسيدك أكلها الذئب . فقال الراعى : فأين الله ؟ فبكى عمر - رضى الله عنه - ثم غدا مع المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال : أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة ، وأرجو أن تعتقك فى الآخرة .

٣ - في السياسة والحكم :

أما فى مجال السياسة والحكم فهو مجال يغرى بالغرور والطغيان إلا أن الخلفاء الراشدين ضربوا أروع الأمثلة فى العدالة التى لا تتحيز لقريب أو تتحيف على عدو ، وفى المساواة القانونية التى لا تعرف الفوارق ، وفى الزهد ..... لقد كان الضمير هو الذى يحكم ويسود .

وهذا الضمير هو الذى جعل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى عام المجاعة المعروف " بعام الرمادة " لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى اسود جلده فيكلمه بعض الصحابة فى ذلك ، فيقول : بئس الوالى أنا إذا شبعت والناس جياع .

ويحدثنا الشعبى أن عليا - كرم الله وجهه - ضاعت منه درع فوجدها عند نصرانى ، فأقبل به إلى القاضى " شريح " يخاصمه وقال على : هذه الدرع درعى ولم أبع ولم أهب . فقال شريح للنصرانى : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ فقال النصرانى : ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندى بكاذب ! فالتفت شريح إلى على وقال يا أمير المؤمنين ، ألك بينة ؟ فابتسم على وقال : أصاب شريح . ما لى بينة ، فقضى بالدرع للنصرانى ، فأخذها ومشى خطوات ثم رجع . فقال أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء : أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقتضى فيقضى عليه أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين ، سقطت منك وأنت منطلق إلى صفين ، فقال على : أما وقد أسلمت فهى لك .

وهكذا كان الضمير المؤمن هو الذى يحكم أمير المؤمنين وهو الذى يحكم القاضى وهو الذى يتحكم فى أفراد المجتمع الإسلامى [1] .

فالحكم الذى لايقوم عليه رجال مؤمنون ، والسياسة التى لا يرعاها ضمير مؤمن إنما هى كما قال الشاعر :

كمثل الطبل يسمع من بعيد وباطنه من الخيرات خال

---

(١) انظر : الإيمان والحياة : د/ يوسف القرضاوى ص٢٣٥ وما بعدها .

وهناك نماذج كثيرة لا يتسع المقام لذكرها إن دلت على شيء فإنما تدل على دور الضمير الذى يحول بين الإنسان وبين ما قد تدفعه إليه نفسه من ارتكاب ما يغضب الله .

وأخيرا فإن النفس لما كانت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر بكل أنواعه فهى كالسائمة التى سارت بين الجموح والضلال فلا هى تهتدى من نفسها ولا هى التى تطيع المرشد الواعظ كلفنا الله بالتكاليف التى تتقدمها العبادات . ففى الصلاة يقف الإنسان أمام مولاه خمس مرات في اليوم والليلة فيذكر عظمته ويرجو ثوابه ويخشى عقابه وعذابه ويصفى روحه من أدران الذنوب ، وقد نقل إلينا أعرابيا جاء إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – ذات يوم وقال له : إن فلانا فعل كذا وكذا من الذنوب والحال أنه يصلى ويوظب على الصلاة . فقال له الرسول – صلى الله عليه وسلم – : إن صلاته ستنهاه يوما ما . فلم يمض على الرجل زمن حتى تاب وأناب وترك الذنوب التى كان يباشرها أولا .

وهذا مصداق قول الحق – جل وعلا – : { إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر } [1] .

وفى الصوم رياضة النفس وتهذيبها بإطاعة أمر مولاها . وهكذا لو استقرينا جميع ما كلفنا الله به لوجدناه منعا للنفس الأمارة بالسوء من أن تميل إلى شر وتربية للضمير الذى يحاسب الإنسان على ما يصدر عنه من أقوال وأفعال .

---

(١) جزء الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .

ثبت المراجع

- القرآن الكريم .
- كتب السنة .
- كتب البلاغة .

١ - الأخلاق فى الإسلام للدكتور يعقوب المليجى - مؤسسة الثقافة الجامعية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٢ - الأخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوى - وكالة المطبوعات الكويت الطبعة الثانية ١٩٧٦م .

٣ - الخلق الكامل لمحمد أحمد جاد المولى - مؤسسة الرسالة بيروت ودار قتيبة .

٤ - الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوى - مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

٥ - إحياء علوم الدين للإمام أبى حامد الغزالى - دار إحياء الكتب العربية .

٦ - أدب الدنيا والدين لأبى الحسن الماوردى - دار ومكتبة الهلال بيروت ١٩٨٥م .

٧ - أصول الفلسفة لمحمد أمين واصف - مطبعة مصر .

٨ - تاريخ الأخلاق للدكتور محمد يوسف موسى - الطبعة الثانية ١٣٦٢هـ - ١٩٤٣م .

٩ - تأملات فى فلسفة الأخلاق للأستاذ منصور على رجب .

١٠ - دراسات فى علم الأخلاق للدكتور محمود محمد مزروعة - مكتبة الرياض للطباعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

١١ - دراسات فى فلسفة الأخلاق للدكتور محمد نصار - مكتبتى لطباعة الأوفست

١٢ - دستور الأخلاق للدكتور محمد عبد الله دراز - مؤسسة الرسالة ودار البحوث العلمية - الطبعة السابعة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

١٣ - العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع للدكتور محمد بيصار - دار الكتاب اللبنانى - الطبعة الرابعة ١٩٧٤م .

١٤ - علم نفس النمو للدكتور حامد زهران - عالم الكتب - الطبعة الرابعة ١٩٧٧م

١٥ - فلسفة الأخلاق لإبراهيم جمال الدين - مطبعة - أمين عبد الرحمن .

١٦ - فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها للدكتور توفيق الطويل - دار النهضة العربية - الطعة الرابعة ١٩٧٩م .

١٧ - فلسفة العقوبة لمحمد مهدى علام - المطبعة السلفية - الطبعة الثانية ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م .

١٨ - كتاب الأخلاق لأحمد أمين - النهضة المصرية - الطبعة العاشرة ١٩٨٥م .

١٩ - كلمات فى مبادىء الأخلاق للدكتور محمد عبد الله دراز - المطبعة العالمية ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م .

٢٠ - مذكرات فى علم الأخلاق للدكتور أبو العلا عفيفى - مطبعة العلوم ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م .

٢١ - معارج القدس للإمام أبى حامد الغزالى - مكتبة الجندى .

٢٢ - المشكلة الأخلاقية والفلاسفة لأندريه كريسون ترجمة الإمام عبد الحليم محمود وأبى بكر ذكرى - مطابع دار الشعب ١٣٩٩هـ .

٢٣ - المعجم الفلسفى للدكتور جميل صليبا - دار الكتاب اللبنانى ، دار الكتاب المصرى .